وفي هيئة أسلوب الاستفهام التّقريريّ تبيّن الآية الكريمة أنّ أولئك الكافرين المتكبرين المستكبرين عن عبادة الله تعالى الصّادّين عن سبيله جلّ وعلا ما يجزون إلاّ جزاء ما كانوا يعملون : ﴿ هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون ﴾ .

هل : حرف استفهام بمعنى النّفي[1] .

إلاّ : أداة حصر .

ما : اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعولٌ به على حذف مضاف أي جزاء ما كانوا[2] .

والآيتان الكريمتان تصحّان في حقِّ كلّ أمّة ، ابتداءً بقوم موسى عليه السّلام وانتهاءً بأمّة محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم .

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٦٨ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٦٩ .

اتخاذ قوم موسى عليه السلام من بعده العجل إلهًا
وغضب موسى الشديد على قومه
الآيات (١٤٨ - ١٥٤)

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

عجلا : العجل هو ولد البقرة[١] وهو مفعول أوّل منصوب لجملة اتّخذ . والمفعول الثّاني محذوف تقديره إلهاً . وجسداً : نعت لـ : عجلاً ، بمعنى مجسّد ، منصوب[٢] .

خوار : الخوار صوت البقر[٣] .

بمجرّد أن ذهب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه جلّ وعلا اتّخذ قومه الّذين سألوه أن يجعل لهم إلهاً كالمشركين العاكفين على أصنام لهم ، اتّخذ قومه من بعده عليه السّلام من حليّهم والذّهب الّذي كان لديهم والّذي يقال إنّهم استعاروه من القبط قوم فرعون فبقي معهم ، اتّخذ قومه ﴿ من حليّهم عجلاً جسداً له خوارٌ ﴾ إلهاً معبوداً من دون الله تعالى . وإنّما اتّخذوا العجل إلهاً بتوجيهٍ من السّامريّ . ويصحّ أن يكون خوار العجل من الذّهب بسبب الرّياح الّتي تدخل من دبره وتخرج من فيه ، وبذلك يكون العجل جسداً لا حياة فيه . ويصحّ أن يكون العجل الجسد تحوّل بإذن الله تعالى عجلاً حقيقياً بفعل التّراب الّذي أخذه السّامريّ من حافر فرس جبريل ووضعه في فم العجل فإنّ أثره الحياة فيما يوضع فيه . والله أعلم[٤] .

وتنكر الآية الكريمة على بني إسرائيل اتّخاذ العجل إلهاً وهم يرونه لا يكلّمهم ، سواءٌ أكان حيّاً لأنّه حيوان ، أم كان جماداً والبليّة في هذا الحال أعظم ، وهم يرونه كذلك أنّه لا يهديهم سبيلا إلى الخير وطريقاً إلى الفلاح . وتقرّر الآية الكريمة في ختامها أنّهم اتّخذوا العجل إلهاً معبوداً من دون الله تعالى وهم ظالمون حينما وضعوا العبادة في غير موضعها .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٤٣ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٧٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٤٣ .

(٤) انظر الجلالين وتفسير ابن كثير ٢/٢٤٧ .

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

ولمّا سُقِطَ في أيديهم : أي ندموا على ما فعلوا[1] .

ونحن نودّ من جانبنا أن نتبيّن العلاقة بين هذا القول : ﴿ ولمّا سُقِط في أيديهم ﴾ وبين النّدم .

إنّ للطّبريّ رحمه الله تعالى رحمةً واسعة اجتهاداً لطيفاً فهو يرى أنّ القول قد سُقِطَ في يديه وأُسقط في يديه ذو علاقةٍ بالشّخص النّادم على هزيمته أمام خصمه الّذي رفعه ورمى به من يديه إلى الأرض فالمرميّ به مسقوط في يدي السّاقط به . يقول[2] : « وكذلك تقول العرب لكلّ نادمٍ على أمرٍ فات منه أو سلف وعاجزٍ عن شيء : قد سُقِط في يديه وأسقط لغتان فصيحتان . وأصله من الاستئسار[3] وذلك أن يضرب الرّجلُ الرّجلَ أو يصرعَه فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره فَيَكْتِفَه . فالمرميّ به مسقوط في يدي السّاقط به . فقيل لكلّ عاجزٍ عن شيءٍ ومصارع لعجزه متنّدم على ما فاته سقط في يديه وأسقط » .

ويصحّ في نظرنا أن يكون النّدم الحاصل لهذا الشّخص من أجل سببٍ آخر وهو أنّ ما قنصته راحته وملكته كفُّه هو سقَط المتاع .

والسّقط : ردىء المتاع[4] والسَّقَط والسُّقاط لما يقلّ الاعتداد به ومنه قيل : رجلٌ ساقطٌ لئيمٌ في حسبه[5] وكأنّ الّذي سُقِط في يديه وأسقط في يديه هو ذلك حصلت يده

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٤٧/٢ وتفسير الطّبريّ ٤٣/٩ والجلالين ومفردات القرآن للرّاغب الأصفانيّ « سقط » ٢٣٥ ومعاني القرآن للفرّاء ٣٩٣/١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٤٣/٩ .

(٣) يقال أسره واستأسره إذا قبض عليه وأخذه .

(٤) معجم مقاييس اللّغة « سقط » ٨٦/٣ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « سقط » ٢٣٥ وجاء في كتاب خلق الإنسان لأبي محمّد ثابت ابن أبي ثابت تحقيق عبدالسّتّار فرّاج الكويت ٩٦٥ ص٨ بشأن المرأة الحامل : « فإذا ألقته لغير تمامٍ فهو سِقْط وسُقْط وسَقْط ، ثلاث لغات » .

على هذا السّقط من المتاع أو الّذي وُضع في يده وأسقط فيها هذا المتاع السّاقط والله تعالى أعلم .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ بني إسرائيل حينما رجع إليهم موسى عليه السّلام وتبيّنوا أنّهم ارتكبوا أكبر ذنب سُقِط في أيديهم وندموا أشدّ النّدم وأيقنوا أنّهم قد ضلّوا وتابوا إلى بارئهم جلّ وعلا وقالوا لئن لم يرحمنا ربّنا ، ولئن لم تشملنا رحمة ربّنا جلّ وعلا الّتي وسعت كلّ شيء ، ولئن لم يغفر لنا ربّنا مربّينا بنعمه وآلائه ذنبنا العظيم لنكوننّ من الخاسرين أصحاب السّعير .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

أسِفا : شديد الحزن[1] عن ابن عبّاس : أسفاً : حزيناً[2] قال أبو الدّرداء : الأسف أشدّ الغضب[3] والأسف على وجهين : الغضب والحزن[4] .

بئسما خلفتموني من بعدي : بئس ، فعل ماضٍ جامد لإنشاء الذّمّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي . ما ، نكرة موصوفة في محلّ نصب تمييز للضّمير الفاعل ، أي الخلافة ، والمخصوص بالذّمّ محذوف تقديره خلافتكم . خلفتم : فعل ماضٍ مبنيّ على السّكون . وتُمْ : ضمير فاعل . والواو : زائدة هي إشباع حركة الميم . والنّون : للوقاية

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٤٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٨ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/٤٤ .

والياء : ضمير مفعول به . من بعد : جارٌ ومجرور متعلّق بـ خلفتموني . والياء : ضمير مضاف إليه[١] .

أعجلتم أمر ربّكم : الهمزة للاستفهام الإنكاريّ[٢] تقول : عَجِلْتُ الشّيء : سبقته . وأعجلته استحثثته[٣] يقول : أسبقتم أمر ربّكم في نفوسكم وذهبتم عنه . يقال منه : عَجِل فلانٌ هذا الأمر إذا سبقه ، وعَجِل فلانٌ فلاناً إذا سبقه . ولا تَعْجلني يا فلان : لا تذهب عني وتدعني . وأعجلته استحثثته[٤] يقول : استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدّرٌ من الله تعالى[٥] أسابقتم قضاء ربّكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الّذي قدّر به[٦] .

وأخذ برأس أخيه : أي بشعره بيمينه ولحيته بشماله[٧] .

قال ابن أمّ : إنّما قال﴿ ابن أمّ﴾ ليكون أرقّ وأنجع عنده وإلاّ فهو شقيقه لأبيه وأمّه[٨] ابن أمّ : منادى مبنيّ على الضّمّ المقدّر على آخره منع من ظهوره حركة البناء الأصليّ وهو فتح الجزأين لأنّه تركيبٌ أشبه خمسة عشر في محلّ نصب[٩] .

ذهب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه في جبل الطّور بشبه جزيرة سيناء بينما عبد قومه في تلك الأثناء العجل ولم يكونوا بعيدين من مكان موسى عليه السّلام . وقد أخبر الله تعالى في سورة طه[١٠] أنّه جلّ وعلا قد فتن قومه وأنّ السّامريّ أضلّهم . قال تعالى : ﴿ قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السّامريّ ﴾ عن سعيد بن جبير عن ابن

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٧٣ .
(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٧٣ .
(٣) معاني القرآن للفرّاء ١/٣٩٣ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٩/٤٤ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٨ .
(٦) تفسير ابن عطيّة ٦/٨٧ .
(٧) الجلالين .
(٨) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٨ .
(٩) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٧٣ .
(١٠) الآية ٨٥ .

عبّاس قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يرحم الله موسى ليس المعاين كالمُخْبَر . أخبره ربّه عزّ وجلّ أنّ قومه فتنوا بعده فلم يُلْقِ الألواح فلمّا رآهم وعاينهم ألقى الألواح[1] .

والآية الكريمة تقرّر أنّ موسى عليه السّلام لمّا رجع إلى قومه غضبان أسفاً ، شديد الغضب على قومه الّذين عبدوا العجل شديد الحزن لإشراكهم مع الله تعالى سواه وارتكابهم الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى إن لم تكن توبةٌ نصوحٌ وإيمانٌ وعملٌ صالح . إنّ موسى عليه السّلام لمّا رجع إلى قومه غضبان أسفاً قال بئس الخلافة تلك الّتي خلفتموني من بعدي ، تركتكم على عبادة الله تعالى وحينما رجعت وجدتكم تعبدون العجل !

أعجلتم أمر ربّكم وسابقتم قضاء ربّكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الّذي قدّره الله لي ، واستعجلتم مجيئي إليكم بالتّوراة وهو مقدّرٌ من الله تعالى !

وتجاه منظر القوم الأليم وهم يعبدون العجل وحالهم الأثيم لم يملك موسى عليه السّلام سوى أن يلقي بألواح التّوراة الّتي يقال إنّها تكسّرت وأخذ برأس أخيه هارون بيده اليمنى بشدّة ، وأخذ بلحيته بيده اليُسْرى وأخذ يجرّه إليه بقوّة ويشدّه إليه بقسوة . قال هارون عليه السّلام لموسى عليه السّلام : يا ابن أمّ ، ومع أنّهما شقيقان فإنّ هارون عليه السّلام يريد بذكر الأمّ بخاصّة إثارة عاطفة الرّحمة والشّفقة في نفس موسى عليه السّلام بقصد إطفاء نار غضبه والحدّ من قسوته عليه وعنفه به خاصّة وأنّه لا ذنب له في شيءٍ ممّا وقع . إنّ هارون عليه السّلام يقول لشقيقه موسى عليه السّلام يا ابن أمّي لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، كما جاء في سورة طه ، إنّ القوم استضعفوني وغلبوني على أمري وحينما نهيتهم عن عبادة العجل وحاولت منعهم كادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تأت من الأفعال معي ما يُسَرّ بها عدوّي وعدوّك ولا تجعلني يا شقيقي مع القوم الظّالمين الّذين عبدوا العجل والّذين أشركوا مع الله تعالى غيره بينما أنا من المسلمين لله ربّ العالمين بل ورسولٌ من ربّ العالمين .

والمعروف أنّ سورة طه أفاضت في الحديث عن هذه الملابسات في الآيات الكريمات ٨٣ ــ ٩٨ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٨ .

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

تبيّن لموسى عليه السّلام أنّ شقيقه هارون عليه السّلام لم يقصّر في واجبه تجاه بني إسرائيل وأنّهم غلبوه عليه السّلام على أمره فدعا الله سبحانه وتعالى أن يغفر له ذنبه الّذي ارتكبه في حقّ أخيه وأن يغفر جلّ وعلا لأخيه ، والمعروف أنّ أنبياء الله تعالى يضربون دائماً وأبداً المثل الأعلى في اليقظة والحذر وهضم النّفس ، هذا ما نصادفه بشأن موسى عليه السّلام وهذا ما نصادفه بشأن خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله صلّى لله عليه وسلّم ، وهذا ما نصادفه في حقّ كلّ النّبيّين والصّالحين .

ويسأل موسى عليه السّلام ربّه أن يدخله هو وشقيقه في رحمته جلّ وعلا الّتي وسعت كلّ شيء . ونستطيع أن نفهم من القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ وأنت أرحم الرّاحمين ﴾ أنّ موسى عليه السّلام يريد أن ينال هو وشقيقه حظّاً من رحمة أرحم الرّاحمين الّتي وسعت كلّ شيءٍ والّتي شملت البرّ والفاجر على أمل أن يتوب الأخير إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وإلاّ كان الأخذ شديداً والعذاب أليماً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الّذين اتّخذوا العجل إلهاً من بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام ، معبوداً من دون الله تعالى ، سينالهم ويلحقهم غضبٌ من ربّهم جلّ وعلا بألاّ تُقْبَلَ لهم توبةٌ حتّى يقتل بعضهم بعضا ، وسينالهم ويلحقهم ذلّةٌ وهوانٌ في الحياة الدّنيا . إنّ في مثل هذه الطّريقة من العقاب يجزي الله تعالى المفترين عليه جلّ وعلا الكذب . وإلى الغضب الّذي نال عبدة العجل أشار قوله تعالى في سورة البقرة[1] : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم

(١) الآية ٥٤ .

خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التّوّاب الرّحيم ﴾ .

وأمّا الذّلّة الّتي ضربها الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل فما أكثر الإشارات القرآنيّة إليها ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران[1] : ﴿ ضُرِبت عليهم الذّلّة أينما ثُقِفوا إلاّ بحبلٍ من الله وحبلٍ من النّاس وباءوا بغضبٍ من الله وضربت عليهم المسكنة . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقّ . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

والآية الكريمة الأخرى تشير إلى باب التّوبة المفتوح على مصراعيه إلى يوم الدّين فتقرّر أنّ الّذين عملوا السّيّئات ثمّ تابوا من بعدها إلى بارئهم توبةً نصوحاً وآمنوا وعملوا الصّالحات ، فإنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم وأيّها النّبيّ العظيم من بعد ارتكاب السّيّئات ومن بعد التّوبة لغفورٌ رحيم . والخطاب وراء ذلك متّجهٌ إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة في القول : ﴿ إنّ ربّك ﴾ .

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

حينما تبيّن موسى عليه السّلام أنّ هارون عليه السّلام لم يألُ جهداً في حمل بني إسرائيل على ترك عبادة العجل والعودة إلى عبادة الله تعالى الواحد القهّار سكت غضبه عليه السّلام الّذي كان لله تعالى وسكنت ثائرته و« كأنّ الغضب كان يغريه على ما فَعَل ، ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليكِ . فترك النّطق بذلك وقطع الإغراء »[2] .

أمّا وقد كفّ الغضب[3] عن موسى عليه السّلام فقد أخذ ألواح التّوراة الّتي ألقى بها

---

(١) الآية ١١٢ .

(٢) الكشّاف ٥٧٩/١ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٤٩/٩ .

على الأرض في حال غضبه وفي نسختها ، وفيما نُسِخ فيها ، أي منها[1] وكتب[2] في الألواح من التّوراة هدىً من الضّلالة ، ورحمةٌ من الله تعالى للّذين هم لربّهم يرهبون ، يخافون ويخضعون . ضمّن الرّهبة معنى الخضوع ولهذا عدّاها باللّام[3] والّذين يخشون عقاب الله تعالى على معاصيه[4] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٤٩/٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٤٩/٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٤٩/٩ .

توبة بني إسرائيل من عبادة العجل
ووجوب اتباع الناس جميعاً محمداً صلى الله عليه وسلم

الآيات (١٥٥ - ١٥٨)

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

واختار موسى قومه : واختار موسى من قومه[١] .

لميقاتنا : للوقت والأجل الّذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم للتّوبة ممّا كان من فعل سفهائهم في أمر العجل[٢] .

فلمّا أخذتهم الرّجفة : الزّلزلة الشّديدة[٣] عن ابن عبّاس : إنّما تناولتهم الرّجفة لأنّهم لم يزايلوا القوم ولم يباينوهم حين اتّخذوا العجل بمعنى أنّهم لم يرضوا ولم ينهوا عن العجل[٤] .

حينما ذهب موسى عليه السّلام لميقات ربّه في جبل الطّور الّذي صام فيه ومكث أربعين ليلةً كان قومه عليه السّلام في تلك الأثناء قد أضلّهم السّامريّ فعبدوا العجل . وهذه الآية الكريمة تشير إلى اختيار موسى عليه السّلام من قومه سبعين رجلاً ممّن لم يعبدوا العجل للوقت والأجل الّذي وعده الله تعالى أن يلقاه جل وعلا فيه بهم ، كي يتوبوا إلى الله تعالى من عبادة قومهم العجل . وكان موسى عليه السّلام لا يأتي طور سيناء إلاّ بإذنٍ منه جلّ وعلا وعلم[٥] وحينما أتوا الجبل أخذتهم الزّلزلة الشّديدة فتضرّع موسى عليه السّلام لربّه قائلاً ياربّ ، يا من ربّيتني بنعمك وأسبلت عليّ سابغ فضلك لو شئت أهلكتهم من قبل

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٥٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٥٠ .

(٣) الجلالين .

(٤) انظر تفسير الطّبريّ ٩/٥١ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٩/٥٠ .

بسبب سكوتهم عن عبادة العجل ولكنّك أنت الحليم الرّءوف الغفور ، ولو شت أهلكتني يا ربّي فلك وحدك لا شريك لك الخلق والأمر .

ويستمرّ موسى عليه السّلام متعطّفا متلطّفاً في سؤال ربّه جلّ وعلا : أتهلكنا يا ربّنا بما فعل السّفهاء منا الحمقى الّذين عبدوا العجل وصرفوا العبادة عمّن يستحقّها وحده لا شريك له جلّ وعلا ؟ ما هي إلاّ فتنتك واختبارك وابتلاؤك فتنت بها السّفهاء وبلوتهم بها وامتحنتهم فما نجحوا في الامتحان . تضلّ بهذه الفتنة من شئت ضلاله ، وتهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم فينجو من الفتنة وينجح في الاختبار . أنت يا ربّنا وليّنا ومولانا ومتولّى كلّ شئوننا . فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وارحمنا ، واشملنا برحمتك الّتي وسعت كلّ شيء ، وأنت سبحانك خير الغافرين وأرحم الرّاحمين .

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

واكتب لنا : أوجب لنا وأثبت لنا[1] .

في هذه الدّنيا حسنة وفي الآخرة : في هذه الدّنيا حسنة وهي الصّالحات من الأعمال ، وفي الآخرة ممّن كتبت له المغفرة لذنوبه[2] .

إنا هدنا إليك : عن ابن عبّاس : إنّا هدنا إليك يعني تبنا إليك[3] وعن عليّ عليه السّلام قال : إنّما سمّيت اليهود لأنّهم قالوا هدنا إليك[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٥٣ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٥٤ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/٥٤ .

يستمرّ موسى عليه السّلام في دعاء ربّه جلّ وعلا والتّضرّع إليه فيسأله عزّ وجلّ أن يكتب له عليه السّلام ولقومه في هذه الدّنيا حسنةً بأن يوفّقهم جلّ وعلا لصالح الأعمال وألاّ يفتنهم عن دينهم ، وأن يكتب لهم في الآخرة حسنة بأن يغفر لهم ذنوبهم ويكفّر عنهم سيّئاتهم . ويقرّر موسى عليه السّلام أنّهم أتوا ربّهم جلّ وعلا تائبين آيبين مستغفرين .

ويجيب الرّبّ الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ مبّيناً أنّ عذابه جلّ وعلا المحدود يصيب به من يشاء إصابته ، أمّا رحمته جلّ وعلا فإنّها غير ذات حدودٍ وتسع كلّ شيء وتشمل كلّ حيّ .

وكما كان العذاب في الدّنيا والآخرة ، كذلك كانت الرّحمة في الدّنيا والآخرة . وإذا كانت رحمة الله تعالى في الدّنيا تسع كلّ شيءٍ فإنّها يوم القيامة خاصّةٌ بالمؤمنين وسيكتبها الله تعالى وسيوجبها للّذين يتّقون الله تعالى في السّرّ والعلن والّذين يؤتون الزّكاة الّتي فرضها الله تعالى على الأغنياء حقّاً للأصناف الثّمانية الّتي عيّنها القرآن الكريم ، والّذين هم بآيات الله تعالى يؤمنون .

وتستمرّ الآية الكريمة التّالية في تبيين أهمّ نعوت أهل الكتاب اليهود والنّصارى ، وأهمّ هذه النّعوت اعتناق دين الإسلام واتّباع محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم . وهذا النّعت هو الحامل لنا على فهم الزّكاة بمعناها العامّ بمعنى الطّهارة والتّزكية ، وبمعناها في الإسلام في هذه الآية الكريمة من سورة التّوبة[1] قال تعالى : ﴿ إنّما الصّدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفةِ قلوبُهُم وفي الرّقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السّبيل فريضةً من الله. والله عليمٌ حكيم ﴾ .

روى الإمام أحمد بن أبي هريرة عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : إنّ لله مائة رحمةٍ ، عنده تسعةٌ وتسعون ، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجنّ والإنس وبين الخلق . فإذا كان يوم القيامة ضمّها إليه[2] .

---

(١) سورة التّوبة ٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥١ .

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

يأمرهم بالمعروف : هو الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى[١] .

وينهاهم عن المنكر : هو الشّرك بالله[٢] .

ويحلّ لهم الطّيّبات : ماكانت الجاهليّة تحرّمه من البحائر والسّوائب والوصائل والحوامي[٣] .

ويحرّم عليهم الخبائث : لحم الخنزير والرّبا وما كانوا يستحلّونه من المطاعم والمشارب الّتي حرّمها الله[٤] .

ويضع عنهم إصرهم : ثقلهم[٥] .

والأغلال الّتي كانت عليهم : عن ابن عبّاس : ماكان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم[٦] ومن تلك الأغلال قتل النّفس في التّوبة ، وقطع أثر النّجاسة[٧] وتحريم

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٥٧ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٥٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٥٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/٥٧ .

(٥) الجلالين .

(٦) تفسير الطّبريّ ٩ /٥٨ .

(٧) الجلالين .

الغنائم ونحو ذلك من الأعمال الّتي كانت عليهم مفروضةً فنسخها حكم القرآن[1] .

وعزّروه : وقّروه وعظّموه[2] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين يستحقّون في الآخرة رحمة الله تعالى من بني إسرائيل ، ومن النّصارى كذلك وهم أتباع عيسى عليه السّلام ، هم الّذين يتّبعون الرّسول من الله تعالى الّذي أوحى إليه بالنّبوّة الأمّي الّذي لا يقرأ ولا يكتب محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم ، الّذي يجده كلٌّ من اليهود والنّصارى مكتوباً عندهم بنعته في التّوراة الّتي أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام والإنجيل الّذي أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنعت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأنّه الرّسول . ونعمة الرّسالة كبرى نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده ، تليها نعمة النّبوّة الّتي تعتبر الطّريق الوحيد المؤدّي إلى مرتبة الرّسالة . والآية الكريمة تنعت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأنّه النّبيّ ، كما تنعته عليه الصّلاة والسّلام بأنّه الأمّيّ ، والمعروف أنّ موسى وعيسى عليهما السّلام كان كلٌّ منهما قارئاً كاتباً وليس كذلك خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم الّذي كانت أمّيّته إحدى معجزاته عليه الصّلاة والسّلام .

والآية الكريمة تنعت الرّسول النّبيّ الأمّيّ بأنّه يأمر بالمعروف شرعاً وعقلاً ابتداءً بتوحيد الله تعالى ، وينهى عن المنكر ابتداءً بالشّرك . كما أنّه عليه الصّلاة والسّلام يحلّ لهم الطّيّبات كالّتي حرّمها الجاهليّون الجاهلون من البحائر والسّوائب والوصائل والحوامي ، وقد قال تعالى[3] : ﴿ ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ .

كما أنّه عليه الصّلاة والسّلام يحرّم عليهم الخبائث كلحم الخزير والرّبا وما كانوا يستحلّونه من المطاعم والمشارب الّتي حرّمها الله ، ويضع عنهم ، وبخاصّة اليهود ، إصرهم وثِقْلهم والأغلال الّتي كانت عليهم . ويلاحظ تعبير الآية الكريمة بالأغلال عن أنواع

---

(١) تفسير الطّبريّ ٥٨/٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٥٨/٩ .

(٣) سورة المائدة ١٠٣ .

المشقّات والتّكاليف . والأغلال جمع غُلّ ، بضمّ الميم . والغلّ ينفرد بين سائر القيود بكونه القيد الّذي يشدّ اليدين إلى العنق شدّاً ممّا يقيّد الحرّكة ويمنع الحرّيّة . والآية الكريمة تبيّن أنّ الأغلال على القوم ، ويُفْهَمُ من ذلك أنّ تلك الأحمال والأثقال على ظهور بني إسرائيل لها من القدرة على منع حرّيّة الحركة مثل ما للأغلال الّتي تقيّد الأيدي وتشدّها إلى الأعناق شدّاً .

ومن الأغلال الّتي كان ينوء بها بنو إسرائيل قتل النّفس في التّوبة ، وقطع أثر النّجاسة ، وتحريم الغنائم ، وما أشارت إليه الآية الكريمة السّادسة والأربعون بعد المائة من سورة الأنعام .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين يؤمنون بمحمّد بن عبدالله صلّى الله وعليه وسلّم من أهل الكتاب وسواهم ويوقّرونه ويعظّمونه وينصرونه عليه الصّلاة والسّلام ويتّبعون النّور الّذي أنزل معه عليه الصّلاة والسّلام من قرآن كريم وسنّةٍ مطّهرةٍ مبيّنةٍ للقرآن الكريم أولئك هم المفلحون حقّاً الفائزون صدقاً . وانظر إلى الظّرف مع في القول : ﴿ واتّبعوا النّور الّذي أنزل معه ﴾ إنّ هذا النّور مصاحبٌ للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

سورة الأعراف من المكّيّ من القرآن الّذي نزل قبل الهجرة . والآية الكريمة الّتي نحن بصددها من الأدلّة الكثيرة في القرآن الكريم على أنّ رسالة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عالميّةٌ منذ فجرها . وها هي ذي الآية الكريمة تأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلم أن يقول للنّاس كلّ النّاس وفي مقدّمتهم أهل الكتاب ، اليهود والنّصارى : ﴿ يا أيّها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقد عرفنا أنّ نعمة الرّسالة كبرى نعم الله تعالى على عبدٍ من عبيده ، والمعروف أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم خاتم النّبيّين وسيّد المرسلين وأحد

أولى العزم الخمسة من المرسلين بل أوّلهم . ثبت في الصّحيحين من حديث جابر بن عبدالله أنّه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحدٌ من الأنبياء قبلي . نُصِرْت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، فأيُّما رجلٍ من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلي ، وأعطيت الشّفاعة ، وكان النّبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى النّاس عامّة[1] وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : « والّذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة يهوديّ أو نصرانيّ ثمّ يموت ولا يؤمن بالّذي أرسلت به إلاّ كان من أصحاب النّار »[2] .

وإنّ الإله الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي أرسل محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم إلى النّاس كافّة هو الله الّذي له ملك السّماوات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ ملكاً وخلقاً وعبيداً فله جلّ وعلا وحده لاشريك له الخلق والأمر ، وهو الله الّذي لا إله إلا هو ، وهو الله الّذي يحيى ويميت وحده لاشريك له . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذي تلك بعض نعوته هو الّذي أرسل محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم إلى النّاس كافّةً فآمنوا أيّها النّاس بالله تعالى ربّاً ، وبرسوله النّبيّ الأمّيّ الّذي يؤمن ويصدّق بالله تعالى إلهاً ، والّذي يؤمن ويصدّق بكلمات الله تعالى وحياً منه جلّ وعلا متّمثلاً في القرآن الكريم الّذي بيّنته سنّته المطهّرة صلّى الله عليه وسلّم ، واتّبعوا أيّها النّاس هذا الرّسول الكريم والنّور الّذي أُنزل معه ولا تبتدعوا لعلّكم تهتدون إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم .

ومن البيّن أنّنا بصدد أسلوب الالتفات إلى الغائب وذلك في القول : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذي ..... ﴾ وفائدة الالتفات هنا أنّه يبيّن صفات هذا الرّسول النّبيّ الّذي يقتضي الإنصاف أن يُتّبع وأن يُصَدَّق . وليس هذا الرّسول النّبيّ الخليق بأن يتّبع ويُصَدّق سوى محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٥ .

(٣) انظر هنا مثلاً المثل السّائر لابن الأثير ٢/١٩٢ .

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَادِلُونَ وَظَالِمُونَ

الآيات (١٥٩-١٦٢)

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ من بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام جماعةً وطائفةً مهتديةً « يهتدون بالحقّ ، أي يستقيمون عليه ويعملون . وبه يعدلون أي وبالحقّ يعطون ويأخذون وينصفون من أنفسهم فلا يجورون »[1] .

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً : الواو استئنافيّة ، قطّعنا فعل ماضٍ مبنيّ على السّكون . ونا ضمير فاعل . وهم ضمير مفعول به . اثنتي : حال منصوبة من ضمير الغائب في قطّعناهم ، وعلامة النّصب الياء . عشرة : جزء عددّي لا محلّ له . وأنّث لفظ عشرة لأنّ التّمييز المحذوف مؤنث تقديره فرقة أو أمّة . أسباطاً : بدل من « اثنتي » عشرة ، منصوب مثله . أمماً : بدل من أسباط منصوب مثله أو نعت له[2] .

وقطّعناهم : فرّقناهم يعني قوم موسى من بني إسرائيل فرّقهم الله فجعلهم قبائل شتّى[3] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٦٠ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٨٩ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٦٠ .

اثنتي عشرة أسباطاً أمماً : والأسباط : ولد يعقوب عليه السّلام وهم اثنا عشر ولداً ، ولد لكلّ واحدٍ منهم أمّةٌ من النّاس واحدهم سِبْط[١] والسِّبط : الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحد[٢] والسّبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسمّوا الأسباط من السَّبَط (بحركتين) وهو التّتابع . فهم جماعةٌ متتابعون[٣] وأمّا الأمم فالجماعات . وقيل إنّما فرّقوا أسباطاً لاختلافهم في دينهم[٤] .

وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه : وأوحينا إلى موسى إذ فرقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة وتيّهناهم في التّيه فاستسقوا موسى من العطش وغور الماء[٥] .

أن اضرب بعصاك الحجر : قيل هو الّذي فرّ بثوبه[٦] فالّلام بناءً على ذلك للعهد والإشارة إلى حجرٍ معلوم . وإمّا للجنس أي اضرب الشّيء الّذي يقال له الحجر[٧] .

فانبجست : فانصبّت وانفجرت[٨] إلاّ أنّ الانبجاس أخفّ من الانفجار[٩] .

قد علم كلّ أناسٍ : من الأسباط الاثنتي عشرة[١٠] .

مشربهم : موضع شربهم[١١] .

وظلّلنا عليهم الغمام : أي جعلناه عليهم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة كسحاب

---

(١) تفسير القرطبيّ ٥٢٥ .
(٢) تفسير القرطبيّ ٥٢٦ .
(٣) تفسير القرطبيّ ٥٢٥ .
(٤) تفسير الطبريّ ٦١/٩ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٦١/٩ .
(٦) الكشّاف ٢١٨/١ .
(٧) الكشّاف ٢١٧/١ ، ٢١٨ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٦١/٩ .
(٩) تفسير ابن عطيّة ١١١/٦ .
(١٠) تفسير الطّبريّ ٦١/٩ .
(١١) تفسير القرطبيّ ٣٥٩ .

جمع سحابة وزناً ومعنى[1] وقال السّدّي : الغمام السّحاب الأبيض[2] .

وأنزلنا عليهم المنّ والسّلوى : المنّ : قيل صمغة حلوة . وقيل : عسل . وقيل : شرابٌ حلو . روي أنّه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس كالثّلج[3] والسّلوى : هو السُّمانى بعينه[4] قال ابن عطيّة[5] : « والسّلوى طير بإجماعٍ من المفسّرين » .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى فرّق بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقةً وجماعةً بعدد أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام . ويعقوب عليه السّلام هو إسرائيل . وقد أصبح كلّ واحدٍ من أبنائه عليه السّلام ، وفيهم يوسف عليه السّلام ، أباً لقبيلة فالأسباط أثنا عشر ولداً ذكراً ليعقوب أو إسرائيل عليه السّلام ، والقبائل اثنتا عشرة قبيلة ، وكلّ قبيلة بمثابة الجماعة أو الأمّة . وهذه القبائل الاثنتا عشرة حينما رفضت أمر موسى عليه السّلام الّذي أوحى إليه بدخول مدينة الجبّارين وساء خلقها مع موسى عليه السّلام وكانت منها الجراءة على الله تعالى كتب عليهم عزّ وجل التّيه في أرض شبه جزيرة سيناء أربعين سنة على نحو ما بيّنت الآيات الكريمات من سورة المائدة ٢٠ ــ ٢٦ وفي التّيه عطش بنو إسرائيل واشتدّت حاجتهم إلى الماء وسألوا موسى عليّه السّلام الّذي دعا ربّه جلّ وعلا فأوحى الله تعالى الّذي وسعت رحمته كلّ شيءٍ إلى موسى عليه السّلام أن يضرب بعصاه الحجر وربّما كان ذلك الحجر حجراً معيناً يحمله عليه السّلام معه ، وربّما كان المقصود أيّ حجر ، وكلٌّ من الحجرين معجزةٌ لموسى عليه السّلام . وحينما يضرب موسى عليه السّلام الحجر ينبجس الماء أوّل الأمر خفيفاً ، ثمّ ينفجر انفجاراً ، في هيئة اثنتي عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط . ويعلم كلّ سبطٍ موضع شربهم .

---

(١) انظر تفسير القرطبيّ ٣٤٦ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٣٤٦ .

(٣) انظر تفسير القرطبيّ ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٤) تفسير القرطبيّ ٣٤٧ .

(٥) تفسير ابن عطيّة ٣٠٥/١ .

وحينما شكا بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام شدّة حرارة الشّمس في التّيه ودعا ربّه جلّ وعلا الّذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ، جعل الله سبحانه وتعالى السّحاب مطلقاً ، أو السّحاب الأبيض ، فوقهم كالظُّلّة والمظلّة بكسر الميم وفتحها ، وهي كلّ ما أظلّك .

ولمّا كان الطّعام من متعلّقات الشّراب وقد أوجد الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل الماء فقد أوجد جلّ وعلا لهم الطّعام دون كدٍّ أو عناء ، فأنزل عليهم المنّ وهو عبارةٌ عن صمغةٍ حلوة كالعسل بيضاء كالثّلج تنزل على الشّجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس ، وليس على بني إسرائيل سوى جمع المنّ من على الشّجر وأكله ، كما أنزل جلّ وعلا عليهم السّلوى وهو طير السُّماني الّذي يصطادون منه دون عناءٍ ما شاءوا وكفاهم . وحينما يكون السُّمانى نوعاً من الطّير يكون بمثابة الطّعام الرّئيس . وحينما يكون المنّ نوعاً من الحلوى يكون بمثابة الفاكهة . وهكذا اصطلحت النّعم على بني إسرائيل في التّيه منّاً من الله تعالى عليهم واستجابةً لدعاء موسى عليه السّلام . لقد قيل لبني إسرائيل كلوا من طيّبات مارزقكم الله تعالى واشكروا له جلّ وعلا ولا تكفروا ولكنّ بني إسرائيل بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً ، وفي الحقيقة هم إنّما ظلموا أنفسهم لأنّ وبال ظلمهم عائدٌ إليهم ولم يظلموه جلّ وعلا ، لأنّه هو الغنيّ سبحانه وتعالى .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

وجه الشّبه كبيرٌ بين الآيتين الكريمتين وبين الآيتين الكريمتين من سورة البقرة الثّامنة والخمسين والتّاسعة والخمسين ، قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها

حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطّةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبّدل الّذين ظلموا قولاً غير الّذي قيل لهم فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزاً من السّماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

والآية الكريمة الأولى تخاطب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتأمره بأن يذكر إذ قيل لبني إسرائيل اسكنوا هذه القرية الّتي ترونها بأعينكم وذلك بعد أن انقضت الأربعون سنةً ومات في أثناء التّيه هارون وموسى عليهما السّلام والكثير من الجيل الّذي حطّم معنوّياته فرعونُ طاغيةُ مصر وآلهُ ، وبعد أن بعث الله تعالى يوشع بن نون عليه السّلام نبيّاً خليفةً عن موسى بن عمران ، وبعد أن جاء من بني إسرائيل الجيل الثّاني الّذي وُلِد في حياة الحرّيّة والّذي قاده يوشع بن نون عليه السّلام من أجل فتح بيت المقدس ــ فيما يقال ــ إنّ هذا الجيل الصّاعد والنّشء الّذي تربّي في جوّ الحرّيّة يقال له اسكن هذه القرية القريبة منك بعد أن تدخلها وكل منها حيث شئت أكلاً رغداً ، أي كثيراً واسعاً ، وقولوا : مسألتنا حطّة[1] وادخلوا باب القرية الّذي كان فيما يقال قصيراً ، منحنين ركوعاً . قال ابن عبّاس : معناه ركّعا . وعبّر عن الرّكوع بالسّجود كما يعبّر عن السّجود بالرّكوع . قيل لأنّ الباب كان صغيراً ضيّقاً يحتاج الدّاخل فيه إلى الانحناء[2] .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ ثمرة الامتثال لأوامر الله تعالى على لسان نبيّه ، قولاً وعملاً ، أن يغفر الله تعالى لبني إسرائيل خطيئاتهم وذنوبهم وسيزيد الله سبحانه وتعالى المحسنين منهم من واسع فضله .

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أنّ الظّالمين من بني إسرائيل بدّلوا قولاً غير الّذي قيل لهم كما بدّلوا العمل . إنّهم بدلاً من أن يسألوا الله تعالى أن يحطّ عنهم خطاياهم ويقولوا حطّة ، هم يقولون : حبّةٌ في شَعْرة ، وأخرجه البخاريّ وقال : فبدّلوا وقالوا حطّةٌ حبّةٌ في شعرة . وفي غير الصّحيحين : حنطةٌ في شَعْر[3] وإنّهم بدلاً من أن يدخلوا باب القرية منحنين

---

(١) تفسير القرطبيّ ٣٥٠ .

(٢) البحر المحيط ٢٢١/١ .

(٣) انظر تفسير القرطبيّ ٣٥٠ والصّيغة الأولى رواية مسلم في صحيحه .

ركّعاً هم يدخلون الباب زاحفين على أستاههم كما جاء في الحديث الّذي رواه مسلم عن أبي هريرة[1] .

إن الظّالمين من بني إسرائيل قد أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم عذاباً من السّماء بسبب ظلمهم الّذي كانوا يرتكبون وفسقهم الّذي كانوا يأتون .

---

(١) تفسير القرطبيّ ٣٥٠ .

بَنُو إِسْرَائِيلَ المُعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ يُمْسَخُونَ قِرَدَةً

الآيات (١٦٣-١٦٦)

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

واسألهم عن القرية : هي أَيْلة بين مَدْين والطّور[١] .

حاضرة البحر : بحضرة البحر أي بقرب البحر وعلى شاطئه[٢] والبحر هو بحر القُلْزُم[٣] قديماً ، البحر الأحمر حالياً . وقد سمّى البحر باسم بلد القُلْزُم بين مصر ومكّة على طرف البحر الشّماليّ .

شرّعاً : شارعةً ظاهرةً على الماء من كلّ طريقٍ وناحية كشوارع الطّرق[٤] عن ابن عبّاس : شرّعاً : ظاهرةً على الماء[٥] .

تتحدّث الآية الكريمة في المعنى الّذي تحدّثت فيه الآية الكريمة الخامسة والسّتّون من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم في السّبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ .

والآية الكريمة تأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يسأل على جهة التّوبيخ بني إسرائيل المعاصرين له عليه الصّلاة والسّلام عن بني إسرائيل أهل قرية أيلة على طرف البحر الأحمر الشّماليّ بين مدين والطّور إذ يعتدي أهلها من بني إسرائيل على حرمات الله تعالى في يوم السّبت المخصّص للعبادة بالاحتيال على حبس السّمك في يوم السّبت في حياضٍ

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطبريّ ٦٢/٩ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٦٢/٩ .

وحفائر واصطياده بعد يوم السّبت مع أنّهم منهيّون عن العمل في يوم السّبت فلجأوا إلى هذه الحيل .

وقد استدرج الله سبحانه وتعالى أهل تلك القرية من بني إسرائيل ومكر جلّ وعلا بهم فكانت الحيتان تأتيهم يوم السّبت ظاهرةً على الماء متعرّضةً بإذن الله تعالى لهم متحرّشة بهم ابتلاءً منه جلّ وعلا ليعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ من يخافه تعالى بالغيب . وفي غير يوم السّبت لا تأتيهم حيتانهم أصلاً بل تبتعد عنهم . لقد كان الأَوْلى بالقوم أن يفهموا أنّ ذلك ابتلاءٌ من الله تعالى ولكنّهم ركبوا رءوسهم واستمرّوا يصيدون في غير يوم السّبت « وكثر ذلك حتّى صادوه يوم السّبت علانيةً وباعوه في الأسواق فكان هذا من أعظم الاعتداء »[1] .

والآية الكريمة تقرّر أنّ هذا الابتلاء من الله تعالى بسبب فسقهم وخروجهم عن الصّراط المستقيم .

والمعروف أنّ أهل القرية انقسموا ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل هو هذا المعتدى .

القسم الثّاني هو المنكر على الفريق المعتدي .

القسم الثالث هو الفريق السّاكت عن المعتدي . والآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الفريق السّاكت .

والّذي يلفت النّظر أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظ الحيتان الّذي يدلّ على نوعٍ ضخم من السّمك ، فهل ذلك من قبيل الابتلاء والمكر بهم ؟ الله أعلم .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

واذكر يا محمّد إذ قالت فرقةٌ منهم وهي الّتي لم تَصِد ولم تنه عن الصّيد للفرقة النّاهية : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم بسبب مخالفتهم أوامر الله تعالى باصطياد الحيتان يوم

---

(١) البحر المحيط ١/٢٤٥ .

السّبت المخصّص لعبادة الله تعالى أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا وعظناهم وفعلنا ذلك معذرةً إلى ربّكم[1] جلّ وعلا كيلا نلام على التّقصير وعلى عدم أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ولعلّ القوم يتّقون الله سبحانه وتعالى فيكفّون عن الصّيد يوم السّبت .

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

فلمّا نسي الصّائدون المعتدون الموعظة الّتي ذكّروا بها فلم يتّعظوا ولم يكفّوا عن الاحتيال يوم السّبت لصيد السّمك ، ولمّا غدت المواعظ في حكم الشّيء المنسيّ أنجى الله سبحانه وتعالى الّذين ينهون عن السّوء ، ويصحّ أن يكون قد لحق بهم في النّجاة الفرقة السّاكتة عن النّهي وقد بادلهم السّياق القرآنيّ سكوتاً بسكوت ، وأخذ الله سبحانه وتعالى الّذين ظلموا منهم بصيد السّمك يوم السّبت بعذابٍ شديدٍ أليمٍ موجع بسبب فسقهم وخروجهم عن الصّراط المستقيم .

والآية الكريمة التّالية تتجاوز هذا المستوى الرّفيع من العذاب الشّديد إلى ما هو أشدّ وأقوى ، أوجع وآلم .

فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

فلمّا عتا الصّائدون المعتدون في السّبت وتكبّروا وتمرّدوا عن ترك ما نهوا عنه ، ولم يُجْدِ معهم العذاب الشّديد الأليم ، تماماً كما لم تجد معهم الموعظة ، قال الله سبحانه وتعالى لهم : ﴿ كونوا قردةً خاسئين ﴾ فكانوا رجالاً ونساءً قردةً خاسئين صاغرين ذليلين مقهورين .

وجمهور المفسّرين على أنّ الّذين مسخهم الله لم يأكلوا ولم يشربوا ولم ينسلوا بل ماتوا جميعاً وأنّهم لم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيّام[2] وقد جاء في سورة البقرة[3] قوله تعالى : ﴿ ولقد علمتم الّذين اعتدَوْا منكم في السّبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين . فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتّقين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٦٣ .

(٢) البحر المحيط ١/٢٤٦ .

(٣) الآية ٦٥ ، ٦٦ .

لَيَبْعَثَنَّ اللّٰهُ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ

وَفِي الْقَوْمِ صَالِحُونَ وَطَالِحُونَ

الآيات (١٦٧ - ١٧١)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

إنّ أوّل ما يلفت النّظر هو دخول لام القسم على الفعل يبعث في القول : ﴿ ليبعثنّ ﴾ لأنّ الفعل ﴿ تأذّن ﴾ جرى مجرى القسم . وذلك دليلٌ على صرامة الموقف ونفاذ القرار . ومعنى تأذّن أعلم وأعلن ، وهو ذو علاقةٍ بالأذان ورفع الصّوت . ومعنى الآية الكريمة : واذكر يا محمّد إذ أعلم ربّك وأعلن على رءوس الأشهاد ليبعثنّ على بني إسرائيل ، وانظر إلى حرف الجرّ « على » الدّال على الاستعلاء والقهر . إلى يوم القيامة من يسومهم ويكلّفهم سوء العذاب . هذه هي القاعدة الأساسيّة بإذن الله تعالى ، وما خالفها فهو استثناءٌ بإذن الله تعالى كذلك . ويكون هذا الاستثناء بحبلٍ من الله تعالى في هيئة الحبل من الله تعالى بمعنى العهد ، وذلك في هيئة الحبل من النّاس ، بمعنى العهد من المسلمين الّذي يأمن به بنو إسرائيل على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وفي حال غياب خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، يكون الحبل من النّاس في هيئة العون الّذي يقدّمه الكفر لبني إسرائيل ، وكلّ ذلك إنّما يتمّ بإرادة الله تعالى . واذكر يا محمّد إذ أعلم ربّك ليبعثنّ على بني إسرائيل إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ويكلّفهم إيّاه . وليس تاريخ بني إسرائيل إلاّ تفسيراً لهذه الآية الكريمة ، وهذا من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز . وهو بشأن المسلمين كما روي عن ابن عبّاس : المسكنة وأخذ الجزية منهم[1] وتقرّر الآية الكريمة في خطابها للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم وكلّ شخص وفي صيغة التأكيد أنّ ربّك لسريع العقاب ، وفي هذا ترهيب ، وأنّه لغفورٌ رحيم ، وفي هذا ترغيب . والتّرهيب والتّرغيب ينسحبان على بني إسرائيل وعلى سواهم . وذلك العذاب كما يكون في الآخرة يصحّ أن يكون في الدّنيا وذلك على غرار سوء العذاب الّذي يسومه النّاس بني إسرائيل ويكلّفونهم به .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٩ .

وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

قطّع الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل في الأرض أمماً ، وفرّقهم جلّ وعلا جماعات ، منهم الصّالحون المتّقون ، ومنهم دون ذلك طالحون فاسقون كافرون ، وقد اختبرهم جلّ وعلا بالحسنات والسّيّئات ، كالعافية والبلاء ، والصّحّة والمرض ، والغنى والفقر ، واليسر والعُسْر ، لعلّهم يرجعون إلى الله تعالى تائبين عابدين متّقين .

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

ما لبث الفريق الصّالح من بني إسرائيل الّذي أشارت إليه الآية الكريمة السّابقة أن اختفى من الوجود وحلّ محلّه الفريق الطّالح . وهذا الفريق الطّالح هوَ الّذي تتحدّث عنه الآية الكريمة الّتي تقرّر أنّ أولئك الصّالحين قد خَلَف من بعدهم خَلْفُ سَوْء وجيلٌ جديد ردىء المعدن ورث عن آبائه وأجداده التّوراة . وها هو ذا الفريق الطّالح يأخذ أفراده عرض هذه الحياة الدّنيا وحطام هذا الأدنى من حلالٍ وحرام ويقولون سيغفر الله سبحانه وتعالى ذنوبنا ويتوبون إلى الله تعالى . وإن يأت هذا الخَلْف السَّوْء حطامٌ آخر مثله ومتاعٌ زائف يأخذوه هو الآخر ويكرّروا القول السّابق : ﴿ سيغفر لنا ﴾ .

والآية الكريمة في أسلوب الاستفهام التّقريريّ تسأل : ألم يؤخذ على بني إسرائيل ميثاق الكتاب والعهد المؤكّد في التّوراة ألاّ يقولوا على الله سبحانه وتعالى إلاّ الحقّ فلِم كذبوا على الله تعالى بنسبة المغفرة إليه مع الإصرار في حين ليس في التّوراة وعدٌ بالمغفرة مع

الإصرار ؟[1] ويشتمّ من الاستفهام الإنكار على القوم العمل بعكس العلم .

إنّ هذا الخَلْف السَّوْء من بني إسرائيل ورث التّوراة ودرس ما فيها فَلِم الكذب على الله تعالى ؟ والآية الكريمة تقرّر أنّ الدّار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون الله تعالى فعلى كلّ إنسان أن يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً وفيهم هذا الفريق الطّالح من بني إسرائيل .

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

دعت الآية الكريمة السّابقة خَلْف السَّوْء إلى أن يتّقي الله تعالى وأن يستعمل عقله استعمالاً صحيحاً . وهذه الآية الكريمة ترشد إلى طريق التّقوى وذلك عن طريق الاستمساك بالكتاب السّماوي وإقام الصّلاة الّتي هي عماد دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم . وتقرّر الآية الكريمة أنّه سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلحين ولا يظلم أحداً بحذف حسنة أو إضافة سيّئة .

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

وإذ نتقنا الجبل فوقهم : واذكر يا محمّد إذ اقتلعنا الجبل فوق بني إسرائيل[2] وجذبناه بشدّة[3] عن ابن عبّاس : رفعناه وهو قوله : ورفعنا فوقهم الطّور[4] .

كأنّه ظلّة : الظّلّة ما أظلّ من سقيفةٍ أو سحاب . فالمعنى والله أعلم كأنّه حالة ارتفاعه عليهم ظلّةٌ من الغمام وهي الظّلّة الّتي ليست تحتها عمد بل إمساكها بالقدرة الإلهيّة[5] .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٧٤ .

(٣) البحر المحيط ٤/٤١٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٠ .

(٥) البحر المحيط ٤/٤١٩ ، ٤٢٠ .

وظنّوا أنّه واقعٌ بهم : وأيقنوا أنّ الجبل ساقطٌ عليهم بوعد الله إيّاهم بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التّوراة وكانوا أبوها لثقلها[1] .

الآية الكريمة ذات علاقة بالآية الكريمة الثّالثة والتّسعين من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واسمعوا . قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العِجْل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

نستطيع أن نجمع بين معنى الآيتين الكريمتين كي يتّضح تعنّت بني إسرائيل وجراءتهم على رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام .

ذهب موسى عليه السّلام لميقات ربّه جلّ وعلا وفي تلك الأثناء عبد بنو إسرائيل العجل الّذي تمكّن حبّهم له من شغاف قلوبهم وتغلغل في أعماقها تغلغل الماء المشروب ، وحينما رجع موسى عليه السّلام بالتّوراة وأمرهم بتطبيق تعاليمها قالوا لموسى عليه السّلام ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ والمعنى سمعنا قولك وعصينا أمرك بالعمل بالتّوراة لأنّها شاقّة . ويُفْهمُ من سياق آية سورة البقرة أنّ بني إسرائيل رغم أخذ الميثاق عليهم والعهد المؤكّد بالعمل بتعاليم التّوراة ، ورغم رفع جبل الطّور فوقهم كأنّه غمامةٌ تظلّهم فقد كرّروا القول : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ وحينما أيقنوا أنّ الجبل واقعٌ بهم وساقطٌ عليهم « خرّ كلّ رجلٍ ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فَرَقاً من أن يسقط عليه »[2] وقيل لهم خذوا ما آتيناكم في التّوراة بقوّة واعملوا بما أعطيناكم في التّوراة بجدّ واجتهاد ، واذكروا ما في هذا الكتاب السّماويّ والتزموا بتعاليمه لعلّكم تتّقون الله تعالى ، حينما أيقنوا أنّ الجبل واقعٌ بهم قبلوا تعاليم التّوراة وإنّ لسان المقال أو الحال يقول : سمعنا وأطعنا ، بدلاً من قولهم السّابق : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ والله أعلم .

---

(١) انظر الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .

يأخذ الله العهد من بني آدم
وهم في عالم الذر بإفراده جل وعلا بالعبادة
الآيات (١٧٢ - ١٧٤)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

واذكر يا محمّد إذ أخذ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم سائلاً قائلاً : ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أنّك ربّنا لئلاّ تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا الشّرك الّذي تورّطنا فيه وعن التّوحيد الّذي هجرناه غافلين .

وانظر إلى جملة أخذ الّتي يفهم منها قوّة الأخذ وشدّة القبض .

وانظر إلى لفظ الرّبّ الحبيب لكلّ تقيّ والّذي يفيض بالنّعم من الله تعالى والآلاء والّذي يشيع جوّ الودّ والرّضا والبهجة ، وقد وردت أحاديث في أخذ الذّرّيّة من صلب آدم عليه السّلام ومن ذلك الحديث الّذي رواه الإمام أحمد عن ابن عبّاسٍ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : إنّ الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السّلام بنَعْمان[1] يوم عرفة فأخرج من صُلْبه كلّ ذرّيّة ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلّمهم قُبُلاً[2] قال : ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا ـــ إلى قوله ـــ المبطلون . وقد روى هذا الحديث النّسائيّ في كتاب التّفسير من سننه[3] وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : يقال للرّجل من أهل النّار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم ألاّ تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك بي . أخرجاه في الصّحيحين[4] وفي الصّحيحين عن أبي

---

(١) نَعْمان بالفتح ثمّ السّكون ، هو نعمان الأراك ، وادٍ بين مكّة والطّائف جنب عرفة . معجم البلدان وتفسير الطبريّ ٩/٧٦ .

(٢) القُبُل من المقابلة والمعاينة .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .

هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : كلّ مولودٍ يولد على الفطرة ، وفي رواية : على هذه الملّة ، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يقول الله : إنّي خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشّياطين فاجتالتهم[1] عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم[2] .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى استخرج ذرّيّة بني آدم من أصلابهم وأشهدهم على أنفسهم وهم في عالم الذّرّ بأنّ الله سبحانه وتعالى هو ربّهم ومليكهم ومربّيهم بنعمه وآلائه ، لئلاّ يقولوا ﴿ يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ فها هو ذا القرآن الكريم يذكّرهم بالعهد الّذي أخذوه على أنفسهم وهم في عالم الذّرّ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وعبادة الله تعالى وحده لاشريك له هي الفطرة الّتي فطر النّاس عليها كما قال تعالى[3] : ﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها ، لا تبديل لخلق الله . ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ .

أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بني آدم وهم في عالم الذّرّ الموثق بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وها هو ذا القرآن الكريم يذكّرهم بالشّهادة الّتي أدلوا بها والعهد الّذي قطعوه على أنفسهم بإفراده جلّ وعلا بالعبادة لئلاّ يقولوا ﴿ يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ فإنّ التّذكير بالإشهاد على لسان صاحب المعجزة قائمٌ مقام ذكره في النّفوس[4] ولئلاّ يقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل مع الله تعالى غيره وسنّوا هذه السّنّة السّيّئة لنا ، وكنّا

---

(١) اجتالتهم : حوّلتهم عن قصدهم .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٦١ .

(٣) سورة الرّوم ٣٠ .

(٤) الجلالين .

ذرّيّة من بعدهم ، نقتفي آثارهم ، ونقتدي بهم ، ونهتدي بهداهم ، ونعطّل عقولنا ثقةً بهم واطمئناناً إليهم . ولئلاّ تسألوا غير محقّين : ﴿ أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ ؟ أفتهلكنا يا ربّنا بما فعل الّذين أبطلوا في دعواهم إلهاً غير الله[1] وافتروا على الله تعالى الكذب بجعل شريكٍ معبودٍ معه جلّ وعلا ؟ .

وإنّ ممّا يقوّي هذا العهد الّذي أخذه النّاس على أنفسهم وهم في عالم الذّرّ أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم بهذا العهد ، وفي ذلك تذكيرٌ لكلّ الخلائق به . ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل النّفس الإنسانيّة مفطورةً على توحيده جلّ وعلا وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة . فلا معنى للشّرك ولا عذر لمن أشرك .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّه جلّ وعلا كما فصّل الميثاق ، بيّن آيات هذه السّورة ، كي يكون النّاس على بيّنةٍ من أمرهم ، وكي يتدبّروا هذه الآيات ، ولعلّهم يرجعون إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم ، ويهجرون طرق الغواية وسبل الضّلالة . فله جلّ وعلا وحده لا شريك له الحمد والمنّة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٨١ .

مَثَلُ الَّذِي يَنسَلِخُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَثَلُ الْكَلْبِ
وَالْكَافِرُونَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

الآيات (١٧٥ - ١٧٩)

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا
فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يتلو على بني إسرائيل المعاصرين له صلّى الله عليه وسلّم خبر ذلك الرّجل من بني إسرائيل ومن علمائهم الّذين آتاهم الله تعالى علم التّوراة وهو بلعم أو بلعام بن باعوراء[1] فانسلخ من آيات الله تعالى ومن تطبيق تعاليمها كما تنسلخ الحيّة من جلدها ، وترك العلم النّافع الّذي وهبه الله تعالى إيّاه وخرج منه كما تترك الأفعى جلدها وتخرج منه ، أما وقد أصبح هذا المنسلخ من آيات الله تعالى لا مولى له فقد تولاّه الشّيطان الرّجيم وأتْبعه وأدركه وصار قرينه فكان من الغاوين الضّالّين المنحرفين عن الصّراط المستقيم . وقد قال الله تعالى[2] : ﴿ ومن يكن الشّيطان له قريناً فساء قرينا ﴾ ويقول ابن القيمّ[3] : « ولم يقل تبعه ، فإنّ في معنى أتبعه أدركه ولحقه ، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى » .

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ
فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

ولكنّه أخلد إلى الأرض : الخاء واللاّم والدّال أصلٌ واحدٌ يدلّ على الثّبات والملازمة . فيقال : خَلَد : أقام ، وأخلد أيضاً ومنه جنّة الخلد[4] وكلّ ما يتباطأ عنه التّغيير والفساد

---

(١) تفسير الطّبريّ وتفسير ابن كثير ٢/٢٦٤ وأسباب النّزول للنّيسابوريّ ٢٦١ .
(٢) سورة النّساء ٣٨ .
(٣) الفوائد ١٣٣ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة « خلد » ٢/٢٠٧ .

تصفه العرب بالخلود[1] وإخلاد الشّيء جعله مُبْقىً والحكم عليه بكونه مُبْقىً ، وعلى هذا قوله سبحانه : ولكنّه أخلد إلى الأرض ، أي ركن إليها ظانّاً أنّه يخلد فيها[2] ولصق بها[3] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لرفع ذلك العالِم من بني إسرائيل بآيات التّوراة الّتي آتاه الله تعالى علمها . وإنّما يكون ذلك الرّفع من الله تعالى لو أنّ ذلك العالم عمل بما علم ، ولو أنّه قَدَر نعمة الله تعالى عليه حقّ قدرها ، فجاهد في سبيله جلّ وعلا وآمن واتّقى . إنّ ذلك العالم بدّل نعمة الله تعالى كفراً ، وبدلاً من أن يرفعه الله تعالى خفضه . وبدلاً من أن يزيده إيماناً وتقوى زاده الله تعالى عمى بصيرة إلى عماه . فكيف عبّرت الآية الكريمة عن خفض الله تعالى ذلك المنسلخ من آيات الله تعالى ؟ إنّها جعلت المعنويّ في هيئة المحسوس فجعلت مثل ذلك المنسلخ من آيات الله تعالى كمثل الكلب . ما أعمق الدّرك الّذي هوى فيه ذلك الّذي انسلخ من آيات الله تعالى حينما انحطّ إلى مستوى الكلب . وأيّ حال خسيسة للكلب آلت إليها حال ذلك الّذي انسلخ من آيات الله تعالى ؟ إنّها حال الكلب حينما يلهث في حال الحمل عليه والشّدّ وفي حال التّرك له والإهمال ، في حال إهاجته وإزعاجه ، وفي حال راحته واستقراره . والمعروف أنّ الكلب ينفرد بين سائر الحيوانات بهذا اللّهَث الشّديد في كلّ الأحوال . إنّ الآية الكريمة تنزّل ذلك الكافر الّذي انسلخ من آيات الله تعالى والّذي لا يصغى لداعيه للعودة إلى طريق الفلاح ، سواءٌ عنُف في دعوته أو رفق به وسواءٌ دعاه أو أهمله ، منزلة الكلب . إنّ الكافر يلازمه كفره في كلّ الأحوال ، تماماً كما يلازم الكلب لَهَثُه في كلّ الأحوال : « والمعنى أنّ الكلب لا يطيعك في تَرْك اللّهث على حال ، وكذلك الكافر لا يجيبك إلى الإيمان في رفقٍ ولا عنف »[4] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « خلد » ١٥٤ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني « خلد » ١٥٤ .

(٣) معجم مقاييس اللّغة « خلد » ٢٠٧/٢ .

(٤) كتاب الصّناعتين لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكريّ تحقيق على محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم الطّبعة الأولى ١٣٧١هـ ١٩٥٢م عيسى الحلبي ٢٤٠ وانظر الفوائد لابن القيّم ١٣٤ .

إنّ مثل الكافر مثل الكلب الّذي تلك حاله ، وإنّ ذلك المثل هو مثل الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى وكفروا واستكبروا عن عبادة الله تعالى وصدّوا عن سبيل الله تعالى ولم يُجْدِ معهم ترغيبٌ ولا ترهيب .

وتأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقصّ القصص وأن يتلو آي الذّكر الحكيم المشتمل على ذلك القصص ، وعلى أحسن القصص الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم لعلّهم يتفكّرون ويعودون إلى الله تعالى .

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

الآية الكريمة بمثابة التّعقيب على المثل السّابق وهي تقول : بئس مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى وكانوا يظلمون أنفسهم ، وبئس المثل مثل القوم الّذين شبّهت حالهم في الثّبات على الكفر بحال الكلب الثّابت على اللّهث في حال العمل وفي حال الرّاحة ، وبئس مثل القوم الّذين تلك صفاتهم .

وحينما نتبيّن أنّ الكلب اللّاهث ضرب مثلاً للمنسلخ من آيات الله تعالى من بني إسرائيل ، وأنّ الحمار الذي يحمل أسفاراً ضرب مثلاً في سورة الجمعة[1] لبني إسرائيل غير المطبّقين لتعليم التّوراة ندرك أنّ مثل الكلب ومثل الحمار كان من نصيب الكافرين من بني إسرائيل .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

بيّنت آية المثل قبل الآية الكريمة السّابقة أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لرفع بآياته جلّ وعلا ذلك العالم من بني إسرائيل الّذي انسلخ من آيات الله تعالى . وهذه الآية الكريمة بمثابة التّبيين لذلك الرّفع والعزّ والمجد والسّؤدد . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذي يهديه الله تعالى هو المهتدى حقّاً . ويصحّ أنْ ننظر إلى الجزئيّة الكريمة الّتي جاءت في أسلوب الشّرط

---

(١) الآية ٥ .

في ضوء قوله تعالى[1] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

وإنّ الجزئيّة الكريمة التّالية المقابلة معنويّاً للسّابقة : ﴿ ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ تبيينٌ لذلك المثل وتقريرٌ لعاقبة كلّ من أخلد إلى الأرض واتّبع هواه وجعل هذه الحياة الأولى وشهواتها ومتعها الأرضيّة الهابطة منتهى همّه . إنّ أولئك الضّالّين قد زادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم وإنّ أولئك هم الخاسرون حقّاً يوم القيامة ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾[2] .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

ولقد ذرأنا لجهنّم : ولقد خلقنا وجعلنا لجهنّم[3] .

لهم قلوبٌ لا يفقهون بها : لهم قلوبٌ لا يتفكّرون بها في آيات الله ولا يتدبّرون بها أدلّته على وحدانيّته ولا يعتبرون بها حججه لرسله فيعلموا توحيد ربّهم ويعرفوا حقيقة نبوّة أنبيائهم[4] والفقه هو التّوصّل إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ فهو أخصّ من العِلم . قال : فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . والفقه العلم بأحكام الشّريعة . يقال : فَقُه الرّجل فقاهَةً إذا صار فقيها . وفَقِه إذا فهم فَقَهاً . وفَقِهه أي فَهِمه . وتفقّه إذا طلبه فتخصّص به ، قال : ليتفقّهوا في الدّين[5] .

بعد حديث السّياق من ذي قبل عن الّذي انسلخ من آيات الله تعالى وعن أمثاله من الكافرين الظّالمين الخاسرين ، تبيّن هذه الآية الكريمة حقيقة هؤلاء الكافرين الّذين إن

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

(٢) سورة الشّعراء ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٦٨/٢ وتفسير الطّبريّ ٨٩/٩ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩٠/٩ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « فقه » ٣٨٤ .

رأيتهم تعجبك أجسامهم أمّا قلوب القوم فهواءٌ من الإيمان ، وأمّا أعماق القوم فخَواءٌ من اليقين ، كما تقرّر أنّ مصيرهم النّار وبئس القرار .

إنّ الآية الكريمة في أسلوب التّأكيد : ﴿ ولقد ﴾ تقرّر أنّ ربّ العزّة قد خلق لجهنّم وجعل للنّار كثيراً من الجنّ والإنس .

والآية الكريمة تعيّن الأسباب الّتي استحقّ أهل النّار من أجلها النّار وبئس القرار .

إنّ للقوم قلوباً ولكنّهم لا يفقهون بها .

وإنّ للقوم عيوناً ولكنّهم لا يبصرون بها .

وإنّ للقوم آذاناً ولكنّهم لا يسمعون بها .

وبطبيعة الحال ، إنّما تريد الآية الكريمة أن تقرّر أنّ القوم لايستعملون هذه الجوارح الاستعمال الصّحيح الّذي خُلِقت من أجله ولا ينتفعون بها من أجل جليل الأعمال ولكنّهم يهدرونها في سَفْسافها .

إنّ القلوب ما خلقت من أجل أن تنبض فقط وتضخّ الدّمّ ولا من أجل ان تنشغل بالقشور أو تتلهىّ بسفاسف الأمور . إنّها خلقت من أجل أن تتجاوز النّبض والضّخّ إلى الفهم والفقه ، إلى الضّبط والعقل ، إلى التّأمّل والتّدبّر ، إلى الاستنتاج والاستنباط . إنّ القلوب خلقت من أجل أن تفقه وتعقل وأن ترى بنور البصيرة . وقد جاء في سورة الحجّ[1] قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب الّتي في الصّدور ﴾ إنّ أهل جهنّم عميت قلوبهم والعياذ بالله وعميت بصائرهم .

وإنّ العيون ما خلقت من أجل أن تبصر المحسوس فقط ، إنّها خُلِقَتْ من أجل ذلك ومن أجل ما هو أجلّ من ذلك بأن يتحوّل نور البصر نور بصيرة فترى العين الحقّ حقاً فتتّبعه وترى الباطل باطلاً فتجتنبه . إنّ أهل جهنّم وقفوا بوظيفة العين عند رؤية المحسوس . والويل لهؤلاء حينما يبتليهم الله تعالى بعمى العين فيجتمع عليهم عمى البصر والبصيرة والعياذ بالله .

---

(١) الآية ٤٦ .

وإنّ الآذان ما خلقت من أجل أن تسمع الأصوات سماعاً مجرّداً فقط . إنّها خُلِقَتْ من أجل ذلك ومن أجل أن تسمع صوت الحقّ ودعوة الحقّ سماع وعيٍ وتدبّر ، وإلاّ فما الفرق بين الإنسان الّذي يسمع الكلام ولا يفقه معناه وبين الأنعام الّتي لا تسمع من راعيها إلاّ الدّعاء في حال القرب منه والنّداء في حال البعد عنه . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ومثل الّذين كفروا كمثل الّذي يَنْعِق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ إنّ مثل الكافرين الّذين عطّلوا آذانهم عن سماع صوت الحقّ سماع تدبر وعطّلوا أعينهم عن رؤية نور الهداية ، وعطّلوا قلوبهم وعقولهم عن الفقه والعقل كمثل تلك الأنعام الّتي لا تسمع من راعيها سوى صوته ، ولا شيء وراء ذلك الصّوت . وقد جاء في حقّ المنافقين قوله تعالى[2] : ﴿ صمٌّ بمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ إنّ الكافرين لا يعقلون لأنّهم عطّلوا عقولهم وقلوبهم أصلاً . وإنّ المنافقين لا يرجعون إلى حقّ ولا يرعوون إلى هدى لأنّهم أُركسوا في الفتنة وعادوا بعد الإيمان إلى الكفر والعياذ بالله فهم لا يرجعون إلى إيمان .

وإنّ آية سورة الأعراف تشبّه هؤلاء الكافرين بالأنعام على النّحو الّذي تبيّن من آية سورة البقرة . وسبق أن شُبّه الّذي انسلخ من آيات الله تعالى بالكلب الّذي يلهث دائماً . بل إنّ الآية الكريمة لتهبط بأولئك الكافرين عن مستوى الأنعام . لأنّ الأنعام ليس لها عقولٌ أصلاً ، بينما الكافرون لهم عقول .. ولأنّ الأنعام تحرص على مصلحتها ومنفعتها بباعث الغريزة ودافع الفطرة ، بينما الكافرون الّذين لهم عقول هم يعطّلون تلك العقول عن العمل الصّحيح الّذي خلقت من أجله ويجهدونها في العمل السّيّيء الّذي ما خلقت من أجله والّذي يعود بأفدح الأضرار على أصحابها . وهل هنالك من ضررٍ يفوق الضّلال ؟ إنّ الضّلال هو الّذي يسخّر الكافرون من أجله عقولهم فثبت أنّهم أضلّ من الأنعام وذلك على غرار بلعام بن باعوراء الّذي يصرّ اختياراً على الكفر سواءٌ وعَظْته أم لم تكن من الواعظين ، بينما الكلب يلهث اضطراراً في حال العسر واليسر ، الكسب والرّاحة ، الجدّ والاسترخاء .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ أولئك الكافرين الظّالمين الخاسرين هم الغافلون حقّاً عمّا ينفعهم فهم معرضون عنه ، وعمّا يضرّهم فهم حريصون عليه .

---

(١) سورة البقرة ١٧١ .

(٢) سورة البقرة ١٨ .

لله الأسماء الحسنى

وانظروا في ملكوت السماوات والأرض

الآيات (١٨٠ - ١٨٦)

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

الحُسْنى : مؤنّث الأحسن[1] .

وذروا الّذين يلحدون في أسمائه : أصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف . ومنه اللّحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر[2] والمعنى اتركوا الّذين يميلون عن الحقّ في أسمائه حيث اشتقّوا منها أسماء لآلهتهم كاللّات من الله والعُزّى من العزيز ومناة من المنّان[3] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، له الأسماء الحسنى والصّفات الأجمل فسمّوه جلّ وعلا بها وادعوه بها . والمعروف أنّ للذّات العليّة اسماً واحداً هو الله أمّا بقيّة الأسماء فإنّها صفاتٌ لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . بدليل أنّ هذا الاسم هو الّذي يوصف بسائر الأسماء ومن ذلك قوله تعالى[4] : ﴿ هو الله الّذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشّهادة هو الرّحمن الرّحيم . هو الله الّذي لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر . سبحان الله عمّا يشركون . هو الله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى . يسبّح له ما في السّماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وإذا كان لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ هو عظيم الأسماء فإنّ ﴿ الرّحمن ﴾ هو عظيم الصّفات . جاء في سورة الإسراء[5] قوله تعالى : ﴿ قُل ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً مّا تدعو فله الأسماء الحسنى . ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا . وقُل الحمد لله الّذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في المُلْك ولم يكن له وليٌّ من الذّلّ وكبّره تكبيرا ﴾ .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٦٩/٢ .

(٣) الجلالين وتفسير الطّبريّ ٩١/٩ وتفسير ابن كثير ٢٦٩/٢ وتفسير الطّبريّ ٢٧٦٤ .

(٤) سورة الحشر ٢٢ — ٢٤ .

(٥) الآية ١١٠ ، ١١١ .

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إنّ لله تسعاً وتسعين اسماً ، مائةً إلاّ واحداً ، من أحصاها دخل الجنّة . وهو وترٌ يحبّ الوتر[1] والمراد بالإحصاء حفظها عن ظهر قلب ، أو الإحاطة بمعانيها ، أو العمل بتلك المعاني . ومن البيّن أنّ الدرجة الثّالثة أرفع من الدّرجتين السّابقتين . وأنّ الثّانية أرفع من الأولى[2] وبشأن القول : « وهو وترٌ يحبّ الوتر » فهمه القرطبيّ رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً بأوسع من صلاة الوتر مثلاً[3] وها هو ذا يقول[4] : « ويظهر لي وجهٌ آخر وهو أنّ الوتر يراد به التّوحيد فيكون المعنى أنّ الله في ذاته وكماله وأفعاله واحد ويحبّ التّوحيد . أي أن يوحّد ويعتقد انفراده بالألوهيّة دون خلقه فيلتئم أوّل الحديث وآخره . والله أعلم » .

وأخرج التّرمذيّ الحديث في جامعه وزاد بعد قوله « يحب الوتر » هو الله الّذي لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم الملك القُدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر الخالق البارىء المصوّر الغفّار القهّار الوهّاب الرّزّاق الفتّاح العليم القابض الباسط الخافض الرّافع المعزّ المذلّ السّميع البصير الحكم العدل اللّطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشّكور العليّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرّقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشّهيد الحقّ الوكيل القويّ المتين الوليّ الحميد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحيّ القيّوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصّمد القادر المقتدر المقدّم المؤخّر الأوّل الآخر الظّاهر الباطن الوالي المتعالي البرّ التّوّاب المنتقم العفوّ الرّءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنيّ المغني المانع الضّارّ النّافع النّور الهادي البديع الباقي الوارث الرّشيد الصّبور . ثمّ قال التّرمذيّ : هذا حديثٌ غريب . وقد رُوي من غير وجهٍ عن أبي هريرة . ولا نعلم في كثيرٍ من الرّوايات ذكر الأسماء إلاّ في هذا الحديث ، ورواه ابن حبّان في صحيحه وابن ماجه في سننه[5] ويقول ابن كثير[6] : « ثمّ ليعلم أنّ الأسماء الحسنى غير

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٦٨/٢ وانظر فتح الباري ٢١٤/١١ حديث رقم ٦٤١٠ .

(٢) انظر مثلاً فتح الباري ٢٢٥/١١ وتفسير القرطبيّ ٢٧٦١ .

(٣) انظر فتح الباري ٢٢٧/١١ .

(٤) نقلاً عن فتح الباري ٢٢٧/١١ وانظر تفسير القرطبيّ ٢٧٦١ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٦٨/٢ ، ٢٦٩ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢٦٩/٢ .

منحصرة في تسعةٍ وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده ... عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : ما أصاب أحداً قطّ همٌّ ولا حزنٌ فقال : اللّهمّ إنّي عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدلٌ فيّ قضاؤك أسألك بكلّ اسمٍ هو لك سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همّي ، إلاّ أذهب الله حزنه وهمّه وأبدل مكانه فرحاً . فقيل : يارسول الله أفلا نتعلّمها ؟ فقال : بلى ينبغي لكلّ من سمعها أن يتعلّمها » ويقول ابن عطيّة[1] عن حديث التّرمذيّ : « وذلك الحديث ليس بالمتواتر . وإنّما المتواتر منه قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلم : إنّ لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائةً إلاّ واحداً ، من أحصاها دخل الجنّة » ويقول القرطبيّ بعد أن أشار إلى مؤلّفه : الكتاب الأسني في شرح أسماء الله الحسنى[2] : « وذكرنا هناك تصحيح حديث التّرمذيّ . وذكرنا من الأسماء ما اجتُمِع عليه وما اخُتلف فيه ممّا وقفنا عليه في كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتي اسم » ويقول ابن عطيّة[3] : « وورد في بعض دعاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : يا حنّان يا منّان ، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية التّرمذيّ » .

وبعد أن أمرت الآية الكريمة بأن ندعو الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحُسْنى وصفاته العُلى أمرت بأن نترك المشركين الّذين انحرفوا بأسمائه جلّ وعلا عن جادّة الحقّ ووجه الصّواب فاشتقّوا منها أسماءً لآلهتهم كاللّات من الله والعزّى من العزيز ومناة من المنّان . والآية الكريمة في تذييلها : ﴿ سيُجْزوْن ما كانوا يعملون ﴾ تهدّد أولئك الملحدين بالعذاب الشّديد يوم القيامة وهذا قبل الأمر بالقتال .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة والآية الكريمة التّاسعة والخمسين بعد المائة من

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٦/١٥٥ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٢٧٦١ .

(٣) تفسير ابن عطيّة ٦/١٥٦ .

السّورة الكريمة . قال تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾ وهـذه الآية الكريمة الّتي نحن بصددها في أمّة محمّد صلّى الله عليـه وسلّـم فقـد روي عن قتـادة أنّ نبـيّ الله صلّى الله عليـه وسلّـم كان يقـول إذا قرأهـا : هذه لكـم قد أعطـي القـوم بين أيديكـم مِثْلَها : ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون[1] .

والآية الكريمة تقرّر أنّ ممّن خلق الله تعالى أمّةً ، هي أمّة محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم ، مهتديـةً قائمـةً على الحقّ تهدي بالحقّ وبـه تعـدل في المعامـلات والأحكـام ولا تأخذها في الحقّ لومة لائـمٍ لها أو عليها . في الصّحيـحين عن معاويـة بن أبي سفيـان قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : لاتزال طائفةٌ من أمّتـي ظاهريـن على الحقّ لا يضرّهـم من خذلهم ولا من خالفهم حتّى تقوم السّاعـة . وفي روايـة : حتّـى يأتي أمـر الله وهـم على ذلك . وفي رواية : وهم بالشّام[2] .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

سنستدرجهم : أصل الاستدراج اغترار المستدرَج بلطـف من حيث يرى المستـدرَج أنّ المستدرِج إليه محسن حتّى يورّطه مكروها[3] .

تتحدّث الآية عن كفّار مكّة في المقام الأوّل الّذين كذّبوا بآيـات القـرآن الكـريم ولم يصدّقوا خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وناصبـوا ديـن الإسلام العـداء . إنّ الآية الكـريمة تبيّـن أنّ الله سبحانه وتعالى يمكر بهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون أنّ ما يُفْتَـحُ لهم من رزقٍ واسع وما يُسْبَغُ عليهم من عافية إنّما هو إمهالٌ لهم كي يؤخذوا على غرّةٍ أخذ عزيـزٍ مقتـدرٍ إن لم يعودوا إلى الله تعالى ويتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً .

وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

وأملي لهم : وأؤخّر هؤلاء الّذين كذّبوا بآياتنا ملاءةً بالكسر والضّمّ والفتح من الدّهـر

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٦٩/٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .